ابن خلدون في المدرسة العادلية « ١ »

— ١ —

ايها السادة مثلما تسارعون كل يوم وخاصة يوم الجمعة الى هذه المدرسة العادلية لاجل المطالعة في غرفتها واستماع المحاضرات في ردهتها كذلك كان اجدادكم من اهل دمشق قديما :

فقد كانوا في القرن الثامن للهجرة ينسلون اليها من كل ناحية لأجل تلقي العلوم المختلفة عن شيوخها وكبار اساتذتها :

ولم تكن هذه المدرسة خاصة باهل دمشق يومئذ بل كانت كالأزهر المصري : يفد اليها شيوخ غرباء . ومجاورون غرباء . فينزلون على الرحب والسعة في غرفها ومقاصرها ويظلون السنين ذوات العدد يفيدون ويستفيدون .

وكان للمغاربة حظ من خدمة العلم في هذه المدرسة : واشهرهم في ذلك (ابن مالك) المغربي النحوي صاحب الألفية المشهور في النحو . فانه جاور في هذه المدرسة اواسط القرن السابع للهجرة . وبعد مئة سنة ونيف (اي في سنة ٨٠٣ للهجرة) نزلها مغربي آخر هو (عبد الرحمن بن خلدون) المؤرخ والفيلسوف المشهور .

---

(١) المدرسة العادلية هي اليوم مقر المجمع العلمي العربي حيث القيته في ردهته هذه المحاضرة

لكن لم يكن وفود المغربي الثاني (ابن خلدون) على دمشق ونزوله في العادلية لأجل المجاورة ونشر العلم بين الطلبة كما كان شأن المغربي الاول (ابن مالك) ، وانما جيئته اليها كانت أثراً من آثار ولوعه بالسياسات . وحرصه على الرئاسات :

وذلك ان الملك (الناصر فرج) سلطان مصر لما بلغه زحف تيمورلنك على بلاد الشام أسرع بعسكر لجب من المصريين لحمايتها والذود عنها .

وقد نصبت سرادقاته السلطانية في خارج سور دمشق في قبة يلبغا (حيث جامع يلبغا أو البغا كما يسمونه اليوم) وذلك في اليوم العاشر من ربيع الثاني سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠) م

ثم ما تم ان جاء المغولي بجيشه المختلط بعد ان اكتسح ما وراءه من مدن الشام والحق بها الاوصاب والالام

فنزل دمشق وضرب سرادقه على جبل قاسيون في قبة السيار . وهي القبة التي تشاهدونها ايها السادة كلما ذهبتم الى النزهة في حي المهاجرين : فكان تيمور يشرف من قبة السيار على قبة يلبغا حيث خيم سلطان مصر ويراقب حركاته وسكناته .

وحصل بين الجيشين وقائع كانت الحرب فيها سجالا .

وقتل من جيش تيمور في بعض هذه الوقعات نحو الفي نفس .

ثم لما رأى تيمور مناعة دمشق واستبسال الدمشقيين والمصريين في الدفاع عنها لجأ الى الحيلة :

فارسل ابن اخت له دهاء ومكر الى الدمشقين وامره بان يتظاهر بالسخط

عليه (اي على تيمور نفسه) وانه يريد الانتقام منه .

ففرح القوم به وامل السلطان (فرج) . بالفوز وقرب الفرج .

وجعل تيمور يخيل الى اعدائه انه مرتبك في أمره . وان جيشه صائر الى التقهقر والانهزام . ولم يكتف بهذا بل ارسل من قبله رسولا يفاوض سلطان مصر بالصلح .

فلم يشك السلطان حينئذ ان الغلبة ستكون له . وانه لم يبق ثمة خوف على دمشق وسكانها .

واتفق ان جاءته اخبار مصر بحدوث فتنة فيها وان هناك من يحاول خلعه من السلطنة واقامة غيره مقامه .

فتسلل فارا الى مصر وترك الى بعض قواده حماية دمشق . لابل إتمام الصلح مع تيمور حسبما توهم .

وسفره من دمشق على هذه الصورة يشبه سفر نابليون بونابارت من مصر الى فرنسا مذ بلغه حدوث ثورة عسكرية فيها ضده . فاسرع اليها ، وأناب عنه في حماية مصر جنراله العظيم كليبر .

وكان سلطان مصر حينما جاء دمشق اصطحب جماعة من كبار العلماء ومشايخ الصوفية للمباهاة بهم . أو لنيل الفوز والظفر ببركاتهم .

وكان بين هؤلاء العلماء (ابن خلدون) نزيل مصر وقاضي قضاة المالكية فيها .

فلما هرب السلطان (فرج) الى مصر بقي ابن خلدون في دمشق وأقام في هذه المدرسة (العادلية) التي نحن مجتمعون فيها الان .

اما تيمور فبعد ان رحل سلطان مصر عن الشام وتمهدت بين يديه أسباب الفوز على هذه الصورة أخذ يشدد الحصار على دمشق . و يضيق الخناق على أهاليها . و كانوا قد انحلت عزائمهم . ودب الفشل الى نفوسهم بعد أن رأوا سلطانهم فرّ وتركهم .

ثم تنازعوا أمرهم بينهم : هل يستسلمون الى تيمور ؟ أو يظلون على مقاومته ؟

أما نائب السلطان الذي يدافع عن قلعة دمشق فقد أرسل الى الاهالي يلومهم على التفكير في أمر التسليم و ينذرهم سوء العاقبة ان هم سلموا .

ولكن السلطة الحقيقية كانت قد خرجت من يده واصبح الحل والعقد في يد علماء دمشق وأعيانها . ومعظم هؤلاء كان يجنح الى مسالمة تيمور . و يفكر في طريقة يتوصل بها الى مفاوضته في امر الصلح .

* * *

ففي خلال تلك المدة كان الذعر مستولياً على سكان دمشق . والحرب الاهلية منتظرة من آن الى آخر . وكان طلاب العلم يلجأون الى هذه المدرسة العادلية للبيتوتة فيها : أمناً على انفسهم من جهة . وليسترقوا أخبار المفاوضات مع تيمور من جهة ثانية : لأن (العادلية) كانت في ذلك الحين أشبه بالمقر السياسي لولاة الأمور من علماء دمشق واعيانها ، وخاصة بعد أن نزلها ابن خلدون الذي جعلته شهرته في السياسة والتاريخ

وعلم العمران موضع ثقة الناس أجمعين.

☼☼☼

ففي الليلة السابعة من شهر جمادى الثانية وهي ليلة عصفت ريحها. واشتد زمهريرها. حتى كأنها الليلة التي عناها شاعر العرب بقوله:

(في ليلة من جمادى ذات اندية   لا يبصر المرء في ارجائها الطنبا)
(لا ينبح الكلب فيها غير واحدة   حتى يلف على خيشومه الذنبا)

في هذه الليلة كان الظلام الحالك مستوليا على المدرسة العادلية. والسكون مخيما في ارجائها. وكان بابها الكبير مغلقا لا يفتح رتاجه لأحد الا بأذن من كبير خدمة المدرسة. فكان الداخل اليها يدخل من خوخة الباب [1] الى صحنها الواسع فلا يسمع حساً الا حفيف ورق الاشجار المغروسة في نواحيها. وخرير المياه التي تنساب في فساقيها. ولا يلمح ضوء سوى أشعة ضئيلة كانت تتراءى من نوافذ غرف الطلبة المجاورين.

ندنو من احدى هذه الغرف فنرى فيها نفراً من الطلاب مختلفي الأزياء والسحنات. وهم جلوس على الحشايا وجلود الغنم حول كانون يستدفئون بناره وعلى مقربة منهم كرسي من خشب يعلوه مصباح يرسل اشعته الضئيلة على كراريس علم في ايديهم. فكانوا تارة ينظرون في الكراريس. وطوراً يلقونها من أيديهم ضجرين متململين ويعودون الى الحديث عن الاحوال الحاضرة

---

(١) الخوخة الباب الصغير في الباب الكبير

المقلقة .

وكيف لا يقلقون وتيمور وجنوده الغلاظ الاكباد يهددون دمشق الحسناء بالشر والبلاء . وكانوا احيانا يصيخون الى صرير باب المدرسة كلما فتح وأغلق متسائلين هل جاء ؟

ومن هو يا ترى ذاك الذي ينتظرون مجيئه ؟ ؟

انتصف الليل و إذا صرير الباب . و إذا خفق نعال و إذا الاعناق مدت والاذان أرهفت . واذا رجل دخل عليهم فهبوا جميعاً للقائه وبادر احدهم فنزع عن القادم ممطرة [1] وعلقه على مشجب [1] في الجدار .

و كان هذا القادم يسمى (ابن الزملكاني) [2] وهو من نوابغ طلبة العلم في دمشق . وكانت آمارات الارتياح والطمأنية ظاهرة على وجهه .

اقترب الرجل من الكانون . وجعل يصطلي . و يقلب كفيه على النار .

و بعد هنيهة سأله الطلبة بصوت خافت :

— وماذا تم ؟ هل وصل القوم الى معسكر تيمور ؟

— نعم وصلوا بحمد الله .

— وكيف فعلوا ؟ هل خرجوا من باب النصر [3] او تدلوا من على السور ؟

— بل تدلوا من السور بحبال ضخمة . وكان خوفي شديداً على استاذي

---

(١) الممطر هو ما نسميه اليوم (مشمعاً) يتقى به المطر والمشجب هو ما نسميه اليوم تعليقة الثياب

(٢) نسبة الى (زملكا) وهي احدى قرى غوطة دمشق (٣) كان موقعه على مقربة من دار المشيرية اليوم

عبد الرحمن بن خلدون : فان برنسه الفضفاض الذي يلبسه كان يحول دون إحكام شد الحبل عليه .

— ومن كان مع استاذك ابن خلدون من القضاة والاعيان غير القاضي (تقي الدين بن مفلح الحنبلي) ؟

— كان معه القاضي (محي الدين بن العز) وولده (شهاب الدين) و (شمس الدين الحنبلي) و (ناصر الدين بن ابي الطيب) و (احمد بن الشهيد الوزير) و (القاضي الجياني) و (نائب الحكم ابن لقوشة) .

فتنفس الطلاب الصعداء . وانكشف عن نفوسهم ما كان يخامرها من كرب وقلق .

ثم اشتد الجدال بينهم بشأن هؤلاء النفر من أعيان دمشق الذين ذهبوا سفراً في الصلح ، وأيهم الذي يحسن السفارة . ويطيق القيام بهذه المهمة مع ذلك الجبار العاتي .

لكنهم اتفقوا أخيراً على تقديم ابن خلدون . ويأتي بعده في المرتبة تقي الدين ابن مفلح : فأنه يعرف اللغة الفارسية واللغة التركية ، لغة تيمور .

ثم قال احد الطلبة : ولماذا يا ترى تدلوا من فوق السور ولم يخرجوا من باب النصر ؟

فأجابه آخر :

إن الصلح مع تيمور كان على غير رضا الحامية المصرية . حتى ان نائب قلعة دمشق أبى أن يفتح لهم باب النصر . وقال لهم إن خرجتم الى تيمور أحرقت البلد جميعها .

ثم رجع الطلبة الى الحديث عن سفراء الصلح . وكان معظم حديثهم يدور حول (ابن خلدون) الذي تولى رئاسة الوفد .

فوجه أحد الطلبة سؤآلا الى (ابن الزملكاني) قائلا :

كيف تفوق استاذك ابن خلدون على أقرانه ؟ ونبغ هذا النبوغ في العلوم الاسلامية وفي علوم الفلسفة والعمران والسياسة ؟ فأجابه قائلا :

ان استاذي (ولي الدين بن خلدون) ثمرة يانعة من ثمرات الحضارة الاسلامية التي بلغت حدها من النضج والتكامل في عصره .

فقد قامت الدول الاسلامية ذات المدنية والعمران في دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة . ثم انقرضت وتركت وراءها من آثار مدنيتها مصنفات في شتى العلوم . كما تركت أبنية ماثلة للعيان . شاهدة على تفوق تلك المدنية . فاستفاد ابن خلدون في سياحاته الطويلة من درس هذه المخلفات الموروثة بعد أن تأمل فيها بعين بصيرة نقادة .

هذا درس استفاد منه ابن خلدون .

وهناك أيها السادة درس آخر استفاد منه ايضا . ولكنه ويا للأسف درس مخجل مخزي .

وموضوع هذا الدرس هو الدول الاسلامية المنتشرة في ذلك الحين في شرق العالم الاسلامي وغربه ما بين دول عربية مغلوبة ، ودول أعجمية غالبة . وقد استولى عليها التحاقد والتحاسد وقام التشاد والتنازع بينها على

قدم وساق .

درس استاذي ابن خلدون هذا الموضوع الثاني درسا عمليـــا مباشراً: فوقف من كثب على اسباب عظمة تلك الدول ثم اسباب تدنيها وانخزالها أمام مهاجميها.

فأفاده هذا الدرس العملي كما افاده ذلك الدرس النظري حذقا وبصيرة؛ وتفقها في علوم العمران. وفهم حقائق هذا الوجود. واسرار عظمة الامم. وعوامل نهوضها وسقوطها .

عدا ان استاذي ورث عن آبائه الاستعداد الكافي لهـذه الدروس. فقد مارس آباؤه الاعمال السياسية ثم تـــولوا اخيراً الخطط الدينية خلال بضعة قرون .

ـــ ومن اين اصل اسرة استاذك ؟

ـــ أصل اسرته من عرب حضرموت توطنوا الاندلس بعد فتحها فكان أجداده الأولون يتولون المناصب (السياسية) في اشبيلية .

ولما تزعزع مركز العرب في تلك الربوع انتقلت الأسرة الخلدونية الى تونس في أفريقية وتولت مناصب سياسية ايضا وكانت هجرتهم هـــذه في خلال القرن السابع للهجرة. حتى قام والده محمد فاشتغل بالعلوم الدينية وتقلد مناصبها. وولد له استاذي ولي الدين في رمضان سنة (٧٣٢ هـ ١٣٣٢م) فنشأ عاكفا عـــلى تحصيل العلوم المعروفة بينهم كما ينشأ أبناء علماء ذلك الزمان.

واول عمل تقلده وهو في سن العشرين كتابة العلامة السلطانية ونصها (الحمد لله والشكر له) تكتب بقلم غليظ على طرز [1] خاص. فباشر هذا العمل على كره واشمئزاز منه.

ثم تحول من تونس الى بجاية [2] بطلب من صاحبها الامير محمد. فلم يلبث ان طار صيته في اصقاع المغرب. فاستدعاه سلطان فارس (ابو عنان المريني) وولاه الكتابة والتوقيع بين يديه وكان عمره ثلاثا وعشرين سنة.

قال ابن خلدون: (فتحملت هذا العمل على كرهمني اذ كنت لم اعهد مثلة لسلفي) يعني أن سلفه انما كانوا يتقلدون مناصب الحكم والامارة لا أعمال الكتابة والتوقيع

طموح نفس استاذى الى المعالي على هذا الشكل الحاد جعل ملوك المغرب وامراءه يرتابون فيه ويحذرون نزواته. ويرقبون حركاته وسكناته كما جعل لداته وعشراءه من عشاق المناصب والمرشحين يغارون منه ويحقدون عليه:

فمن بين ارتياب اولئك الامراء، ومنافسة هولاء الارباب والعشراء نشات جميع متاعب ابن خلدون وراجت المطاعن في اخلاقه ونسبة الدخل الى سلامة صدره. وكان ارتياب الملوك والامراء فيه يمهد السبيل امام وشاية الواشين. وكيد القلاعين [3]

---

(١) وهذا ما تكتب الطغراء في مراسيم آل عثمان

(٢) هي بلدة في الجزائر على ساحل البحر

(٣) القلاع في اللغة العربية هو الذي يرى ذا منصب أو مكانة لدى الامراء والحكام فيسعى في قلعه من مكانته. والحلول محله فيها

فسعوا لدى سلطان فاس (أبو عنان) بابن خلدون وقالوا انه يدبر مؤامرة عليه مع صديقه أمير بجاية . فنكبه السلطان وسجنه فقاسى في السجن محنة وبلاءً .

ثم مات السلطان (أبو عنان) وخلفه (ابو سالم) فأطلق ابن خلدون من سجنه وولاه رئاسة الانشاء . وحينئذ ظهرت كفاية ، وذاعت في الاقطار شهرته . ولا سيما مذ سلك في الكتابة طريقته المرسلة المعهودة في مقدمة تاريخه . وكان يغلب على كتاب ذلك الزمن التسجيع ، ومراعاة انواع البديع .

كان ملوك المغرب لا يرون في ابن خلدون الا أنه يصلح للمناصب الدينية وللكتابة في دواوين الانشاء . وكان هو على العكس يرى في نفسه الكفاية لمناصب الحكم والامارة . وتولى أعمال السياسة والادارة . فكان موقفه إزاء الملوك والأمراء موقف شد وجذب . ومماطلة وعتب .

وحاله هذا يذكرنا بحالة شاعرنا المتنبي : فقد كان سيف الدولة وكافور الاخشيدي يريان فيه شاعراً حكيماً . وهو يريد منهما ان يرياه اميراً عظيماً . حتى قال احد بطانة كافور يوماً لكافور : ما ضرك لو قلدت ابا الطيب عملا وارحت نفسك من الحاحه ؟ فأجابه بهذا الجواب الحازم : ياقوم رجل تجرأ على الله فادّعى النبوة افلا يجترئ علي ويدعي الخلافة ؟

ثم مل ابن خلدون الاقامة في فاس على غير جدوى فتحول الى الاندلس . ونزل على ملك غرناطة من بني الاحمر . فأكرم الملك ووزيره (لسان الدين ابن الخطيب المشهور) مثواه واحسنا وفادته . وتوثقت بين

الوزير لسان الدين وبين ابن خلدون اواصر الحب والصداقة. ولا عجب فقد كانا كلاهما كوكبي ذلك العصر، في استجماع آلات الرئاسة ولا سيما صناعتي النظم والنثر.

وكانت الاندلس لحين وفود ابن خلدون عليها في دور الانحطاط بل قل في دور النزع والاحتضار. وكان النزاع شديداً بين ملك غرناطه (محمد الخامس) من بني الاحمر وبين (بيترو) ملك قشتاله. فارسل ملك غرناطة (ابن خلدون) لمفاوضة (بيترو) في فض بعض المشاكل القائمة بينهما. فجاء ابن خلدون اشبيلية وهي موطن اسرته القديم كما ذكرناه. وكان لدى ملك قشتاله طبيب يهودي يعرف من امر ابن خلدون وفضله وتاريخ اسرته ما لا يعرفه اهل اسبانيا. فكان ذلك مما حمل الملك الاسباني على الاحتفاء بابن خلدون. حتى كلفه ان يبقى عنده في اشبيلية وهو يرد اليه ما كان لابائه من ملك وعقار. فأبى ذلك ابن خلدون. وعرف ان هذا الملك العدو لم يرد في اكرامه اكرام العلم والأدب. وانما اراد تمزيق وحدة العرب.

ولما اتم ابن خلدون مهمته السياسية لدى ملك قشتاله واراد الرجوع الى غرناطة اهدى اليه (بترو) بغلة فارهة بلجام ذهب. فلما وصل واخبر الملك بما اتفق عليه مع ملك قشتاله سر واجزل صلته وأهدى ابن خلدون الى الملك البغلة ذات اللجام الذهبي التي اهداها اليه ملك قشتاله فأقطعه الملك عوضاً عنها بلداً [1].

---

(١) يراد بالبلد في اصل اللغة العربية مطلق ارض عامرة او غامرة ذات سكان او خالية من السكان. واطلاقها على المدينة المبنية ذات السكان عرف طاري، مولد. فالبلد التي اهداها ملك قشتاله الى ابن خلدون هي اذن ارض زراعية للاستغلال فعرب الاندلس اذا كانوا يسمون الزراعة (بلداً) فان اهل دمشق يسمونها (حانوتاً) واهل مصر عزبة والاتراك جفتلك.

ثم ان الشنشنة الملعونة التي كادت تكون علامة فارقة تميز العرب عن غيرهم واعنى بها تحاسدهم على الرئاسة، الى حد تقطيع أوصالهم واتلاف نفوسهم — هذه الشنشنة عملت عملها في التفرقة بين ابن خلدون وصديقه وزير الاندلس لسان الدين بن الخطيب فقد وشوا بابن خلدون الى هذا الوزير قائلين له: إن ابن خلدون انما ينظم القصائد في مدح الملك لأجل زحزحتك عن دست الوزارة والحلول محلك. وما أسرع تأثير أمثال هذه الوشايات في نفوس المستعدين لها.

ويظهر ان الوزير لسان الدين كان على جلالة قدره، وحصانة عقله مستعداً لقبول هذه الوشاية الدنيئة فتغير على ابن خلدون. فشعر هذا بالامر فاستأذن الملك في الرحيل الى بلاده فلم يأذن له الملك فألح عليه فأذن له اخيراً آسفاً على فراقه.

كان ابن الزملكاني يحدث طلبة العادلية بحديث استاذه ابن خلدون وبمناقبه الغر واذا هو يرى في وجه بعضهم أمارات الارتياب والشك في صحة ما يورده من سلامة أخلاق استاذه. فبقي مسلسلا حديثه ثم قال:

ويريد قوم أن يعيبوا استاذي بقلة الوفاء ويزعمون انه كان يدس الدسائس. ويبثر بذور الفتن في كل ارض حلها للاصطياد واحتجان المنافع. ولو أدى ذلك الى الاخلال بمنافع خلانه وبمصالح الملوك الذين إئتمنوه على اسرارهم.

فقاطعه احد الطلبة قائلا: ولكن لماذا نرى استاذك لا يستقيم على حال. ولا يستقر في مكان. بل يتلون بما استطاع من الألوان. في معاملة

الرؤساء والاخوان ؟

فاحتدم ابن الزملكاني غيظا وقال : هذا كذب وافتراء على استاذي وان عقله وحكمته ودينه ليربأ به ان يكون من ضعف الاخلاق على ما وصفه خصومه .

نعم إن استاذي يطمح الى المعالي وتسنم الرئاسات . ولكنه كان يسعى اليها بما اوتي من ذكاء وعلم ومن طريق النصح والأمانة . لا من طريق الغدر والخيانة . فان هذا لا دليل عليه سوى ما يختلقه خصومه وينسبونه اليه :

كان ابن خلدون لا يفد على امير ما لم يكن الامير نفسه هو الطالب لوفادته . الحريص على الاجتماع والاستضاءة هو وقومه بنوره حتى اذا عاشر ابن خلدون القوم . وعجم عودهم . واستخرج دفائنهم . وجدهم دونه في الذكاء والفضل والاضطلاع بعلوم السياسة وتوفر آلات الرئاسة . فهو ان لم يطلب المناصب بلسان مقاله . فقد كان يطلبها بلسان حاله . وهذا بالطبع يؤدي الى منافسة اقرانه له . فيجتهدون في الوشاية به والحط من منزلته لدى الملوك . كي يقصوه عنهم ويستأثروا هم بالمناصب والرتب

ثم اخرج ابن الزملكاني من جيبه دفترا صغيراً وقال للقوم اسمعوا ماذا كتب استاذي ابن خلدون الى صديقه وزير الاندلس لسان الدين ابن الخطيب متنصلا مما اتهم به من قلة الوفاء قال :

(فلا تظنوا بي الظنون . ولا تصدقوا التوهمات . فأنا من قد علمتم صداقة . وسذاجة . واتفاق ظاهر وباطن . أثبت الناس عهداً . وأحفظهم

غيبا . واعرفهم بوزان الاخوان ومزايا الفضلاء ؟)

فقاطعه الطلبة قائلين إنك مهما برأت استاذك من تهمة قلة الوفاء . لا تقدر ان تبرأه من وصمة الكبر والخيلاء . فقد كتب في ترجمته نفسه يصف دخوله غرناطة واحتفاء أهلها به فقال :

(وتهافت العلماء وأهل البلد علي من كل صوب يمسحون أعكاني . ويقبلون يدي وكان يوماً مشهوداً) فقال ابن الزملكاني : ليس في هذا القول ما يدل على الكبر والعجب وانما الرجل يصف واقعة حال . شأن المؤرخ الأمين . على ان في ذكره لاحتفاء أهل غرناطة به إظهاراً للنعمة وشكراً لله عليها .

فقال له الطلبة دعنا الان من هذا وعد بنا الى تتمة اخبار استاذك وما جرى له في بلاد المغرب بعد ان رجع من الاندلس فقال :

جاء استاذي الجزائر بدعوة من سلطانها . ولم يسلم هناك ايضاً من المتاعب التي سببها له حسد منافسيه . ووشاية خصومه . فبقي نحو عشر سنين يتنقل بين حكومات الجزائر وفاس وغرناطة . وكان كلما هم بالتفرغ للعلم . والعكوف على التصنيف . جاءته دعوة من هذا الملك أو ذاك الوزير يستقدمونه اليهم لتقليده الاعمال والمناصب . وإذ كان الرجل سليم الصدر سهل الانخداع . كان يقدم عليهم . فيعود رجال البلاط الى منافسته والوشاية عليه : فاما أن يسجن و إما أن ينفى من الارض . عندها يخنق على السياسة . ويمل مراودة الرئاسة . ويقبل على التعليم والتصنيف . فيحال بينه وبين ذاك . حتى تيسر له اخيراً ما أراد . فتسلل هرباً من سفارة سياسية كلفه إياها

(ابو حمو) ملك تلمسان والتجا الى اولاد عريف في الصحراء . فانزلوه بقلعة أولاد سلامة . فأقام فيها أربع سنوات عاكفاً على تأليف تاريخه الكبير ، وكتب مقدمته المشهورة في خلال تلك المدة .

وهذه المقدمة هي التي أطارت ذكره في الشرق والغرب . ورفعت منزلته في عيون الامم جميعها : عربها وعجمها .

والمقدمة أيها السادة ليست في فن واحد بل هي أشبه بدائرة معارف لطيفة في حجمها غزيرة في مادتها ، مبتكرة في اسلوبها . فقد تضمنت فنونا مختلفة مما يسميه أهل هذا العصر (علم الاجتماع) و (علم السياسة) و (علم الاقتصاد السياسي) و (فلسفة التاريخ) و (تاريخ الاداب العربية) و (هندسة بناء المدن) وغير ذلك مما انتظمه البحث في تلك المقدمة التي ابتكرها عقل ذلك العربي الحضرمي . بل إن في المقدمة من المباحث المتعلقة بتطور الكائنات ما يشبه من بعض الوجوه مباحث العلم الحديث المسمى بالنشوء والارتقاء .

نرجع الى حديث ابن الزمكانى مع طلبة العادلية قال :

لكن ابن خلدون بعد اشتغال اربع سنين في وضع تاريخه وهو معتزل في (قلعة اولاد سلامه) — رأى نفسه محتاجا الى مصنفات يقتبس منها لتاريخه مادة علمية جديدة ، وهذه المادة العلمية انما توجد في دور الكتب الكبرى التي تكون في الحواضر كتونس مثلا . فترك ابن خلدون (قلعة اولاد سلامه) وأم تونس . حتى اذا نزلها لم ينشب أن عاد الى التمرس بالسياسة والتطلع الى الرياسة . فاما ان يكون هو اشتاق الى المناصب فسعى اليها . او

تكون هي راودته عن نفسه فخضع واستكان لديها .

لانعلم كيف كان الأمر وانما نعلم أن الوشاة وشوا الى سلطان تونس ، وبنوا وشايتهم على أن ابن خلدون لا يتنزل لمدح الملك بقصائده كما مدح غيره من الملوك ، فانخدع الملك . ولم يفكر في ان ابن خلدون بلغ من جلال السن ووقار العلم حداً لا يصلح معه نظم الشعر ولا التملق به الى جبابرة الملوك — وفي آخر الأمر رأى ابن خلدون نفسه مضطراً الى نظم قصيدة في مدح الملك فنظمها ورفعها اليه وجعل لها مناسبة ، وهي إهداء الاجزاء التي تمت من تاريخه الى الملك ، ولكن هل أفادت القصيدة ابن خلدون شيئاً او دفعت عنه أذى الوشايات ؟ كلا !

عندها ضاق صدر الرجل وعزم على الرحلة الى بلاد المشرق بحجة اداء فريضة الحج ، وهبط مصر سنة ٨٧٤ للهجرة وعمره اثنان وخمسون سنة . وكان ذلك في زمن سلطنة الملك الظاهر برقوق ، فاحسن الظاهر وفادته ، وولاه قضاء المالكية . ومهد له سبيل نشر العلم في الجامع الأزهر وغيره من المعاهد .

ثم لم تكن حالة ابن خلدون في مصر بدعا من حالته في تونس وفاس وغرناطه : فقد حامت حوله الوشايات هنا كما كانت تحوم حوله هناك . غير أن برقوق سلطان مصر لم يزعجه بالسجن أو النفي كما فعل غيره . بل احترم غربته . وراعى حق ضيافته ، فاكتفى بتنحيته عن قضاء المالكية وبقي يواصله ببره وانعامه .

وقد قال قوم : إن ابن خلدون أراد ان يدس الدسائس في مصر لاصطياد

المناصب كما كان يفعل في بلاد المغرب لكنه لم ينجح. لأن عمران مصر كان قائماً على دعائم ثابتة. وقوانين مقررة. وشتان بينه وبين عمران المغرب ودويلاته البربرية التي كانت تسوس رعاياها بالعنف والغلظة. ولذا تنبه رجال مصر الى دسائس ابن خلدون فقضوا عليها في مهدها. وكذا قالوا: ولكن يظهر للمتأمل في مطاوي أخبار ابن خلدون ان عدم نجاحه في مصر كان ناتجاً عن شدته في المعاملة وصرامته في تطبيق احكام الشرع، على الكبير والصغير، بحيث ما كانت تأخذه في الحق لومة لائم، وهي حالة لم يعتدها المصريون اذ ذاك، بل كانت الشفاعات فيهم رائجة. وكلمة الامراء والعظماء ولو بالباطل نافذة.

لا جرم ان الناس في عهد ابن خلدون كانت تغيرت اخلاقهم الدينية عما كانت عليه من قبل: هذا سلطان العلماء العز بن عبد السلام كان قاضياً في دمشق ثم في مصر قبل ابن خلدون بنحو مئة وخمسين سنة، وكانت كلمته الدينية نافذة ككلمة باباوات روما في القرون الوسطى.

فقد روى السيوطي في كتابه (حسن المحاضرة) ما ننقله عنه ببعض تصرف قال انه في سنة ٦٣٩ هـ بلغ العز بن عبد السلام قاضي دمشق أن الصالح اسماعيل ملكها استعان بالافرنج واعطاهم في مقابل ذلك مدينة صيدا وقلعة الشقيف. فأنكر الشيخ على الملك فعله. وترك الدعاء في الخطبة له. فغضب السلطان منه. فغادر الشيخ دمشق. وهاجر الى مصر. فأرسل السلطان خلفه من يتلطف اليه ويرده من الطريق الى دمشق فلحقه القاصد واستوقفه فقال له الشيخ: — وماذا تريدون؟

— ما نريد منك شيئا الا ان تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير .

— يا مسكين : ما ارضاه يقبل يدي فضلا عن ان أقبل يده . يـــا قوم انتم في واد وانا في واد . والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاكم به .

ثم وصل الشيخ الى مصر فتلقـــاه ملكها (الصالح نجم الدين ايوب) وا رمه وولاه قضاء مصر فأخذ الشيخ يقيم الحدود ويحافظ عـلى الحقوق بكل شدة وصرامة ومن دون محاباة حتى بلغه أن فخر الدين عـــثمان بن شيخ الشيوخ (وهو الذي كان اليه أمر المملكة) وكان استاذ دار الملك الصالح — بنى على ظهر أحـــد المساجد (طبلخانه) وان الطبول كانت تقرع وتزعج المصلين . فأمر الشيخ (أولا) بهدم الطبلخانة . و (ثانياً) باسقاط الاستادار فخر الدين . و (ثالثاً) بعزل نفسه من القضاء . فلم يبال الاستادار بهـــذا الاسقاط . وظن انه لا يؤثر في مرتزه في الخـــارج لكن اتفق أن ارسل الصالح ايوب رسولا الى المستعصم خليفة بغداد برسالة ، فسأله الخليفة هـــل سمعت هذه الرسالة من الملك نفسه ؟ قال : لا بل سمعتها من استاذ داره فخر الدين ابن شيخ الشيوخ . فقـال الخليفة إذ ذاك إن فخر الدين قد اسقطه قاضي مصر العز بن عبد السلام فنحن لا نقبل روايته .

فخرج الرسول الى مصر فتحمل الرسالة مشافهة من الملك الصالح نفسه ثم عاد بها الى الخليفة فقبلها . (واسقاط العز بن عبـــد السلام لفخر الدين على هذه الصورة يشبه الحرم الذي يلقيه رؤساء الدين المسيحي على أبنـاء ملتهم) .

ولما ثبت لدى الشيخ عز الدين أن جميع امراء الدولة الاتراك مشريون

بمال بيت المسلمين وان حكم الرق مستصحب عليهم لم يثبت عتقهم، فهم مملوكون للائمة، والواجب بيعهم لعدم انتفاع الامة بهم ثم ترد اثمانهم الى بيت المال، وتنفق في مصالح المسلمين.

فعظم الامر على الامراء وراجعوا الشيخ فلم يرجع عن قوله بل أعلن للملأ انه لا يجوز البيع الصادر من هؤلاء الامراء ولا شراؤهم ولا نكاحهم. فتعطلت المصالح و وقف دولاب الاشغال. وكان من هؤلاء الامراء أمير كبير وهو نائب السلطنة فاشتاط غيظاً وقال كيف ينادى علينا وتباع ونحن ملوك الارض! ثم استل سيفه وقصد الشيخ في داره وطرق الباب فخرج اليه ابن الشيخ ولما رأى الامير والسيف في يده مسلول ذعر و رجع الى ابيه فأخبره فقال له ابوه لا تخف يا بني فان اباك أحقر من أن يقتل في سبيل الله ثم خرج الى الباب، فلم يكد يراه الامير حتى يبست يده وسقط السيف من يده وجعل يرتعد ويبكي ويسأل الشيخ أن يدعو له ثم قال للشيخ:

— يا سيدي أيش تعمل؟

— أنادي عليكم وأبيعكم.

— وفيم تنفق أثماننا؟

— في مصالح المسلمين.

— من يقبضها؟

— انا!!

حينئذ فهم نائب السلطنة (المستحقة رقبته للامة) أن الامر جدّ فرجع أدراجه ثم نودي عليه وعلى رفاقه واحداً بعد واحد. ولم يرض مولانا

القاضي الا أن يبيعهم باثمان غالية (تكريماً لهم) حتى اذا استوفى ثمنهم أنفقه في وجوه الخير .

وبعد هذه الحادثة بأقل من مائة وخمسين سنة كما قلنا جاء ابن خلدون الى مصر وأراد أن يعمل ما عمله سلطان العلماء العز بن عبد السلام من إقامة الحدود والمحافظة على الحقوق ، فلم يتمكن لأن الاخلاق الدينية كانت قد تغيرت والاوضاع الاجتماعية تبدلت ؛ حتى أدى الأمر الى عزله عن القضاء وحينئذ انقطع للعلم والتصنيف .

ثم حدث له وهو في مصر أمر آلمه جداً : ذلك أنه استدعى اليه من تونس زوجته وأولاده وامواله فغرقوا في البحر وكان ذلك من أعظم منغصاته في الحياة .

قال ابن الزمكاني وهو يحدث الطلبة ، ثم مات سلطان مصر (برقوق) وخلف ابنه الناصر فرج الذي جاء دمشق لحمايتها من تيمور ، واحضر معه العلماء والصوفية وفي جملتهم ابن خلدون ضيفكم في هذه المدرسة العادلية ورسولكم الى تيمور بالصلح في هذه الليلة

ثم توقف ابن الزملكان عن اتمام الحديث وقال لرفاقه الطلبة : ها نحن الان في الثلث الاخير من الليل وقد ران الكرى على الجفون وأنا تعب واهن الجسم وأشعر في نفسي بحاجة الى الراحة والمنام .

فصرخوا كلهم بل نريد أن نعرف تمام أخبار استاذك فحدثنا بها واشغلنا عن المنام . لعل الوفد يعود من عند تيمور فنسمع منه ماذا جرى له ، وكيف وقع الصلح وما هي الأحاديث التي دارت بين تيمور وابن

خلدون . فقال لهم إن رجال الوفد لامندوحة لهم عن البيتوتة في معسكر تيمور هذه الليلة وربما عادوا الينا غداً في ضحوة النهار . وإذ ذاك نتتبع الاثار ونستقصي الأخبار . فنهضوا وحي بعضهم بعضاً . وانصرفوا الى مضاجعهم .

وهكذا نحن ايها السادة اصبحنا مضطرين إلى مغادرة المدرسة العادليه ثم العودة اليها يوم الجمعة الآتي في الساعة الثالثة بعد الظهر لاستماع تتمة أخبار ابن خلدون . وما ذكرناه اليوم إنما هو مقدمة لما سنذكره في المحاضرة الاتية من أخباره ، التي من اغربها قيامه من قبره وطوافه في العالم الاسلامي ثانية كما طافه منذ خمسةقرون .